

حرف اللام

لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ رضي الله عنه

الشاعرُ الْمُخَضَّرُ

صحابي، عامري، جعفري، شاعر مخضرم، واحد من فحول الشعراء، ومن أصحاب المعلقات الذائعي الصيت، كانت «تامر بنت زنباع» العبسية، تزوجت «قيس بن جزء بن خالد بن جعفر» فولدت له «أربد بن قيس» ثم خلف عليها «ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب» العامريُّ، وقد أنجبت له «ليبد بن ربيعة»، وكان «ربيعة» يلقَّب بربيعة المقترين - أو ربيع المقترين - لسخائه، وقد قتله بنو أسد في حرب بينهم وبين قومه.

كان «أربد بن قيس» أسنَّ من أخيه «ليبد بن ربيعة»، فلما قتل والد «ليبد» كفله أعمامه بنو «أم البنين» لصغر سنه، فنشأ في أكنافهم، وكان يكنى: «أبا عقيل».

وكان «أربد» شديداً على أعدائه، ليناً عطوفاً على ذوي القرابة، وبخاصةً على أخيه «ليبد»، وقد ذكره «ليبد» في شعره، فقال بعد مصرعه بصاعقة أحرقتة:

وأرى أربد قد فارقني ومن الأرزاء رزؤ ذو جَلَلِ
مُتَمَرُّ مَرٌّ على أعدائه وعلى الأذنين حُلُو كالعَسَلِ

وأخذ نجم «لبيد» يلمع في سماء الشعر، حين رافق أعمامه، وقد أرادوا أن يدخلوا على الملك «النعمان بن المنذر»، فما الذي جرى يومئذ؟ يقول الراوية «حماد»^(١)، [نظر «النابغة الذبياني» إلى «لبيد بن ربيعة» وهو صبي مع أعمامه على باب «النعمان بن المنذر» فسأل عنه، فنسب له، فقال له: يا غلام، إن عينيك لعينا شاعر، أفتقرض من الشعر شيئاً؟ قال: نعم، يا عم! قال: فأنشدني شيئاً مما قلته، فأنشده قوله:

ألم تُرْبِعْ عَلَى الدَّمَنِ الخِوَالِي؟

فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر، زدني يا بني! فأنشده:

طَلَلْ لَخَوْلَةَ بالرَّسِيْسِ قَدِيمُ

فضرب بيديه إلى جنبه، وقال: اذهب، فأنت أشعر من قيس كلها، أو قال: هوازن كلها، وتجيء هذه الرواية بشكل آخر فتزيد أنه أنشده:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا

فقال له: اذهب، فأنت أشعر العرب!

إن هذه الرواية برهان ودليل على أن «لبيداً» اقتحم مضمار الشعر الرفيع، وهو ما يزال غلاماً، وأن شهادة «النابغة الذبياني» الخبير العليم في صناعة الشعر، له لم تأت من فراغ! وقد وصف «ابن قتيبة» شعر «لبيد» بسهولة المنطق ورقة الحواشي، وخالفه «الفرّاء» حيث قال: لبيد وابن مقبل يجريان مجرى واحداً في خشونة الكلام وصعوبته.

أما الأصمعي فوصف شعره بالطيلسان الطبري، وقد قيل في تفسير ذلك: إنه جيد الصنعة، وليست له حلاوة، ولم يعده في

(١) شرح ديوان لبيد للدكتور إحسان عباس - طبع الكويت (ص ٢١).

الفحول، ووصفه بالصلاح تهرباً من الحكم على شعره^(١).
وقد أخرج ابن هشام في السيرة النبوية^(٢) ما رواه ابن إسحاق،
عما جرى بين «عثمان بن مظعون» صاحب رسول الله ﷺ و«ليد بن
ربيعة» قبل أن يدخل «ليد» واحة الإسلام:

[قال ابن إسحاق: فأما «عثمان بن مظعون» فإن صالح بن
إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، حدثني عن حدثه، عن عثمان،
قال: لما رأى «عثمان بن مظعون» ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من
البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان «من الوليد بن المغيرة»، قال: والله!
إن غدوي ورواحي آمننا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل
ديني يَلْقَوْنَ من البلاء والأذى في الله ما لا يُصِيبني، لنقص كبير في
نفسي، فمشى إلى «الوليد بن المغيرة» فقال له: يا أبا عبد شمس، وفت
ذَمَّتْكَ، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لِمَ؟ يا بن أخي! لعله أذاك
أحد من قومي، قال: لا، ولكنني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن
أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جوارني علانية كما
أجرتك علانية، قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد:
هذا «عثمان» قد جاء يرد عليّ جوارني، قال: صدق، قد وجدته وفيّاً
كريم الجوار، ولكنني قد أحببتُ ألا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه
جواره، ثم انصرف «عثمان»، و«ليد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن
كلاب» في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم «عثمان» فقال
ليد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

قال «عثمان»: صدقت، قال «ليد»:

(١) انظر الموشح للمرزباني (٧١).

(٢) ابن هشام (٤٠٧/١).

وكلُّ نعيمٍ لا محالةً زائلٌ

قال «عثمان»: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال «البيد بن ربعة»: يا معشر قريش، والله! ما كان يُؤذَى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفیه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجِدَنَّ في نفسك من قوله، فردَّ عليه «عثمان» حتى شَرِيَّ^(١) أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فحضرها، و«الوليد بن المغيرة» قريب يرى ما بلغ من «عثمان»، فقال: أما والله! يا بن أخي! إن كانت عينك عمًا أصابها لَغَيَّةٌ، لقد كنت في ذمة منيعة، قال: يقول «عثمان»: بل والله! إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له «الوليد»: هَلُمَّ يا بن أخي، إن شئت فعُدَّ إلى جوارك، فقال: لا].

وكان للبيد شرف في الجاهلية، وقد زاد بالإسلام ذلك الشرف، وكان يطعم الناس الطعام، وقد ذكر «ابن قتيبة» في كتابه «الشعر والشعراء»^(٢): [وكان «البيد» ألى^(٣) في الجاهلية ألا تَهَبُّ الصَّبَا إلا أطمع الناس حتى تسكُنَ، وألزمه نفسه في إسلامه، فخطب «الوليد بن عقبة» الناس بالكوفة يوم صَبَا، وقال: إن أخاكم «البيد» ألى ألا تهب الصَّبَا إلا أطمع الناس حتى تسكُنَ، وهذا اليوم من أيامه، فأعينوه وأنا أول من أعانه، ونزل فبعث إليه بمائة بكرة، وكتب إليه:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هَبَّت رياحُ أبي عقيل
أشمُّ الأنفُ أصيدُ عامريُّ طويلُ الباع كالسيفِ الصقيل

(١) شَرِيَّ: زاد وعظم.

(٢) الشعر والشعراء (١/٢٧٦).

(٣) ألى: أقسم ونذر.

وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِحَلْفَتِيهِ عَلَى الْعِلَّاتِ^(١) وَالْمَالِ الْقَلِيلِ
بَنَحَرَ الْكُومِ إِذْ سَحَبْتَ عَلَيْهِ ذِيوَلٌ صَبَأٌ تَجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ
فَلَمَّا أَتَاهُ الشَّعْرُ قَالَ لِابْنَتِهِ: أَجِيبِيهِ فَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَعْيَا بِجَوَابِ
شَاعِرٍ، فَقَالَتْ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعُونَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
أَسْمُ الْأَنْفِ أَصِيدَ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مَرْوَتِهِ لَبِيدَا
بِأَمْثَالِ الْهَضَابِ كَأَنَّ رَكْبًا عَلَيْهَا مِنْ بَنِي حَامٍ قُعودَا
أَبَا وَهَبٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا نَحْرِنَاهَا وَأَطْعَمْنَا الشَّرِيدَا
فَعُدْ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي يَابْنَ أَرُوِي أَنْ تَعُودَا

فَقَالَ لَهَا «لَبِيدُ»: أَحْسَنْتَ لَوْلَا أَنَّكَ اسْتَطَعْتِيهِ، قَالَتْ: إِنَّهُ
مَلِكٌ وَلَيْسَ بِسُوقَةٍ، وَلَا بِأَسْ بِاسْتَطْعَامِ الْمَلُوكِ]. وَكَانَ «لَبِيدُ» مِنْ
الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ^(٢). وَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ^(٣):
[حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَثْنِيِّ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ
عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،
قَالَ: (أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ)].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ^(٤): [حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، حَدَّثَنَا سَفِيَّانُ، عَنْ
عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
(أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ

(١) عَلَى الْعِلَّاتِ: عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ فِي الْعَسْرِ وَالْيَسْرِ.

(٢) ابْنُ الْأَثِيرِ فِي أَسَدِ الْغَابَةِ (٣/٥٥٥).

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٦١٢٤).

(٤) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ (٣٦٢٨).

باطل، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم).

وذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء^(١): [وأدرك «ليبد» الإسلام، وقدم على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب، فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، ثم قدم «ليبد» الكوفة وبنوه، فرجع بنوه إلى البادية بعد ذلك، فأقام «ليبد» إلى أن مات بها، فدفن في صحراء بني جعفر بن كلاب، ويقال: إن وفاته كانت في أول خلافة «معاوية» وأنه مات وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة. ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، واختلف في البيت، قال أبو اليقظان: هو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا
وقال غيره: بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح
وقال له «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه: أنشدني من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال: ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة ﴿البقرة﴾ و﴿آل عمران﴾، فزاده «عمر» في عطائه خمسمائة درهم، وكان ألفين، فلما كان زمن «معاوية» قال له «معاوية»: هذان الفؤدان^(٢) فما بال العِلاوة؟ يعني بالفؤدين الألفين، وبالعلاوة الخمسمائة، وأراد أن يحطه إياها، فقال: أموت الآن وتبقى لك العِلاوة والفؤدان! فرق له «معاوية» وترك عطائه على حاله، فمات بعد ذلك بيسيراً. وقيل: إنه لم يدرك خلافة «معاوية»^(٣).

وروي أن الشعبي قال لعبد الله بن مروان: تعيش ما عاش «ليبد بن

(١) الشعر والشعراء (١/٢٧٥).

(٢) الفؤدان: العِذلان يوضعان على جانبي البعير.

(٣) أسد الغابة (٣/٥٥٦).

ربيعة»، وذلك أنه لما بلغ سبعا وسبعين سنة أنشأ يقول:
 باتت تشكّي إليّ النفس مُجْهِشَةً وقد حملتْك سبعاً بعد سبعينا
 فإن تزاذي ثلاثاً تبلغني أملاً وفي الثلاث وفاء للثمانينا
 ثم عاش حتى بلغ تسعين، فقال:

كأنّي وقد جاوزت تسعين حجةً خلعت بها عن منكبيّ ردائيا
 ثم عاش حتى بلغ مائة وعشراً، فقال:

أليس في مائة قد عاشها رجلٌ وفي تكامل عشر بعدها عُمرُ
 ثم عاش حتى بلغ مائة وعشرين، فقال:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟^(١)
 وقد قلّ شعره بعد إسلامه لعكوفه على القرآن، وسُلُوّه لعادات
 الجاهلية وأعرافها وتقاليدها ومباحاتها التي حظرها الإسلام، وأياً
 كانت سن «البيد» عند وفاته، فقد كان من المُعَمَّرِينَ الَّذِينَ نَأُوا
 بَأَنْفُسِهِمْ عَنِ النَّارِ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.